أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تابع ما نشر في العدد الماضي

كيف عم الاسلام غرب أفريقيا

١ — في المدة التي بين سنتي ٦٤٠ و٦٤٢ تم لعمرو بن العاص فتح مصر. ومنها استطاع عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر

٢ — وفي سنة ٦٦١ كانت واقعة صفين المشهورة وانشق بعدها قوم على علي بن أبي طالب فسموا بالخوارج. وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقية ونزلوا بشواطئ تونس، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى في جزيرة جربا Jerba. وهناك انتشرت آراؤهم. ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقية حتى ساحل مراكش الأطلسي؛ وبعد سنة ٧٢٠ أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر

٣ — وفي سنة ٦٦٩ استقر حكم العرب في شمال أفريقية، وعين عقبة بن نافع حاكما على أفريقية (تونس الحالية)؛ وفي سنة ٦٧٣ أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين. وفي سنة ٦٨١ تقدم عقبة نحو الغرب بجيشه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي

٤ — وبعد سنة ٧٩٥ تولى حكم أفريقية موسى بن نصير وتقدم في فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة Septa وهناك لم يجد العرب صعوبة في نشر الاسلام دين الفطرة. وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربري طارق بن زياد

٥ — وتولى حكم أفريقية بعد هذا الأدارسة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات أخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقية وصقلية

٦ — وفي المدة التي بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادي عشر كان العنصر العربي في شمال أفريقية أقلية يمثلون في آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين. ولكنهم استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولغتهم وحكمهم على ملايين من البربر

٧ — وحوالي سنة ١٠٤٥ نزل بالشاطئ الأيمن للنيل قبائل بني هلال وبني سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدأوا يعملون على إثارة الشغب في مصر العليا؛ ولكي يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء في ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقية، فعبر الصحراء منهم ما يقرب من المائتي أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك

٨ — وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب ووصلوا إلى النيل الأوسط. وعلى النيل الأزرق (في سنار) أنشأوا امبراطورية الفنج Fung العظيمة التي استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر. ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقية. ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لا زالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو في دارفور وواداي وشمال السنغال ونهر النيجر

٩ — وفي القرن الحادي عشر أيضاً نشأت فرقة المرابطين. وعلى أيديهم اعتنق سكان سينيغمبيا Senegambia ونيجريا الاسلام

١٠ — وتلت دولة المرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الديني، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الاسلام

١١ — وفي عهد الملك السعدي السادس «المنصور الذهبي» وصلت مراكش إلى أقصى قوتها، وشملت مملكة نيجرية واسعة

١٢ — وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت في مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية. وتولى أحد هؤلاء الزنوج الحكم، واتخذ تمبكتو حاضرة لملكه. ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقية. ولقد أثرى حفيد هذا الملك «إسحاق بن سوكيا» Ishak bin Sokya وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور المورى moorish

أبي العباس المنصور . وتمكن الجيش الموري بقيادة جودر باشا Juder Basha من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو . وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو «محمود باشا» فأتم الفتح الموري للسودان حتى وصل إلى بورنو Bornu وسنيغمبيا . ولم تتضاءل قوة الموريين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام الفولا وهجوم الطوارق

ويقول جونستون : « ولربما كانت مراكش تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه في القرن السادس عشر — لولا أن وصلها الترك ... » [1] — ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول ... إلا إذا كانت الحكومة القائمة في مراكش حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها ... ولكن الحقيقة أن الحكومة في كل بلاد المغرب في ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوروبا وخاصة أسبانيا — فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سعت وراءه تطارده في شمال أفريقية وغربها ... وجونستون نفسه يقول : « ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحي اسبانيا في القرن السادس عشر — انتهز سلطان الترك الفرصة وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة ١٥١٧ وفي تونس سنة ١٥٧٣ وفي طرابلس سنة ١٥٥١ ... »

فمن هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحي في اسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت ؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجاد بالترك ورضوا نجدة القراصنة منهم . وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطيء إلى الداخل ، ولم يضموا إليهم أراضي وملكا جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القرصنة وسلب سفن المسيحيين . ولو أنهم حاولوا ملكاً في الجنوب لاستطاعوه ، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة اسلاماً حقاً متصلاً بالعالم الخارجي الآن ، ولكنهم على كل حال حموا شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة . وها نحن أولاء نسمع كل يوم عن اضطهاد الطليان والفرنسيين والاسبان للمسلمين في طرابلس وتونس والجزائر ، ومع هذا فإن الإسلام في ذلك الحين لم تقف موجة انتشاره ، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين في جميع قبائل السودان حتى حدود الكمرون — كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام في تلك الجهات كما سنرى بعد

لم تخضع مراكش كجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة ، فقد أخذت عن الترك نظام الملبس ونظام تعبئة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور . ولكن مراكش بقيت مستقلة ، بل لقد أعلن حاكمها المنصور نفسه خليفة سنة ١٥٣٨ بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر ، وتنتقل إلى تركية

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الاسلامية العربية ، فمهما انتقل الحكم إلى أيدي الترك أو الإغريق أو السلاف أو الزنوج المستعربين فإن الأثر الإسلامي والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقية والسومال وسناو ونوبيا وكردفان ودارفور ووادي وبورنو وأراضي الحوصا والصحراء ومعظم سينغمبيا وآفاقاً متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطيء القلتا Uollta الأعلى كما اعتنق أهالي كل تلك الجهات الدين الجديد : دين الإسلام

مبهمات نجهلها

ولقد كنت أحس عند قراءتي عن هذه المناطق لذة غريبة فلقد كنت أكشف لنفسي الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامي يجهلها معظم المصريين ويجهلها برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية ، ولكننا بعد هذا التمهيد نستطيع أن نصور الحالة التي كان عليها كل شمال أفريقية في هذه الكلمات :

كانت موجة التأثير الإسلامي تتسع طوال العصور الوسطى فتشمل كل يوم آفاقا جديدة من شمال أفريقية ، وامتدت الموجة فشملت بعض العصور الحديثة ؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بانتهاء القرن التاسع عشر ، وبتلاشيها تركت البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية ، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية ، والزنوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط ، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا ، وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرقي . وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنغو الأعلى

(١) الكتاب السالف الذكر ص ٦٩

ولنتحدث الآن عن أثر الإسلام فى بعض هذه الولايات كمثل للولايات الأخرى ؛ وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط

حضارة جديدة

كان لدخول الاسلام فى أفريقية تأثير هام على سكانها وخاصة فى السودان الغربى . ولم يقتصر تأثير الاسلام على التغيير الواضح الذى أحدثه فى الأهلين من الناحية البشرية ، بل لقد حمل معه إلى هؤلاء الأقوام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً وثقافة لازالت تميزهم فى حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية . ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال ألف السنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الاسلام ضغطاً مباشراً أو غير مباشر ؛ بل إننا لنرى أن ثورة الفولانى السياسية فى القرن التاسع عشر ودخول الكانمبو Kanembo إلى بورنو كان تحت تأثير الاسلام . ولقد كان للاسلام كذلك تأثير عميق فى لغات نيجريا الرئيسية ، فمعظمها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية التى لاتزال تستعمل حتى اليوم

* * *

والاسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض حوصا Hausa Laud وبورنو Bornu بل لقد نفذ الاسلام إلى كثير من القبائل الوثنية التى لم يصلها التبشير المسيحى بعد ، وكما أن الاسلام دخل فى هذه الجهات من الشمال فان الشمال أشدها وأكملها إسلاماً — وإن كان الاسلام فى نوبيلاند Nupeland ويوروبالاند Yorubaland له نصيب كبير من القوة والانتشار ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الاسلام بعد

ونحن لانعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون السابقة لجهاد الفولانى . ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقى Leo Africanus فإن أهالى كاتسينا Katsina وكانو Kano كانوا برابرة نصف عراة فى منتصف القرن السادس عشر . وعلى الجملة فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية من غيرهم . وفى سنة ١٨٠٤ وضع الشيهو عثمان Shehu Osman (قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت) لبلاط جوبير Gobir نظاماً هو خير قليلاً من النظام الوثنى ، وقد بقى الأهلون يصلون للموتى ويمجدون الأولياء الراحلين ويسمحون لنسائهم بالخروج سافرات . ولقد لاحظ « أولدفيلد Oldfield » فى رابا Rabba أن ابنة عثمان زايكى Osman Zaiki حاكم نوبيلاند الفولانى تحمل فى يديها زجاجات برتقالية مملوءة بالمشروبات الروحية ، فشرب الخمر وعقيدة الخلود لازلا سائدين

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش ؛ ورؤساء « اكوين Akuain » المسلمون فى هارداوا Hardaua عند انتخابهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس ؛ بل إنهم ليستشفون بشرب الحبر الذى كتبت به آيات القرآن . وهم مازالوا يعتقدون فى السحر والتعاويذ ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية والأحجبة يحيطون بها رقابهم وأذرعتهم وأوساطهم

والمسلمون فى تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخنون الطلاسم لتقيهم شر الأرواح الخبيثة

من هذا كله نرى أن الاسلام من الناحية الروحية لم يستطع تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لانقطاع الصلة وبعد الشقة بينه فى تلك الجهات وبين ديار الاسلام القوى الحق . ولكن الاسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية بادى الأثر فى هؤلاء الأقوام . لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل المتبربرة ، ودعا جماعات الوثنيين المبعثرة إلى وحدات مرتبطة ، وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجى ، وبذلك استيقظت الغرائز التجارية الكامنة فى نفوس الحوصا Hausa والنوبى Nupe واليوروبا Yaroba والبربرى Beri Beri . وحملهم على الظهور بمظهر لائق ، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً اجتماعياً راقياً ؛ وبث فى نفوس المسلمين الشعور بالعزة واحترام النفس والغير . فتفوق المسلمين فى تلك الجهات على غيرهم من الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم ؛ فنحن لا ننسى أن الاسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة ...

والآن أصبح زنجى السودان بعد أن حرم عليه الاسلام شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رفيقاً لسكان العالم المتحضر

(البقية فى العدد القادم) جمال الدين محمد الشيال